رؤية العالم في فكر عبد الحميد أبو سليمان
قراءة في التوجهات الفكرية الجديدة لمدرسة إسلامية المعرفة

أ.محمد بابكر العوض*

مستخلص :
تحاول الورقة بيان موقف الدكتور عبد الحميد أبو سليمان من فكرة رؤية العالم من خلال التعرف على الاهتمامات الفكرية لهذا المفكر كما تعرضها كتاباته، وموقع هذه الكتابات من الإنتاج العلمي الكلي لمدرسة إسلامية المعرفة، ثم التعرف على ملامح فكرة رؤية العالم لدى أبي سليمان، لنخلص من بعد ذلك إلى أهم الأبعاد الفكرية التي ينطوي عليها موقفه من فكرة رؤية العالم.

مقدمة :

يخرج المطلع على الإصدارات الأحدث لإسلامية المعرفة بانطباع أن فكرة (رؤية العالم) تتحرك لتتخذ موقعاً مركزياً في أجندتها الفكرية ، وإذا صحت قراءتنا للتوجهات الفكرية الجديدة لهذه المدرسة فمن الواضح أن رؤية العالم مرشحة لأن ترث موضع الاهتمامات التقليدية لإسلامية المعرفة والمتمثلة في دراسات النظام المعرفي ، وملامح المنهجية الإسلامية في التفكير والبحث، وتطبيقاتها في التعامل مع الأصول الإسلامية، والتراث الإسلامي والإنساني، والواقع المعاصر، والمستقبل المنشود للأمة والعالم.

ولا خلاف حول أن الدكتور عبد الحميد أبو سليمان من رموز مدرسة إسلامية المعرفة المؤثرين ومنظريها البارزين فقد كان له دور مقدر في تطوير وتوجيه الحركة الفكرية لهذه المدرسة، من خلال قيادته للعديد من مؤسساتها، وما خلفه من إنتاج علمي ثر ومسيرة مليئة بالإنجازات الفكرية والمواقف المشهودة ؛ وبناءً عليه فإن موقف وحكم هذا المفكر على التطورات والتحولات الفكرية لهذه المدرسة تظل له قيمته المقدرة وهو ما يعطي المبرر لمحاولتنا البحث عن فكرة رؤية العالم في تضاعيف فكر أبوسليمان وعطائه العلمي من خلال هذه الورقة الموجزة .

الاهتمامات الفكرية لأبي سليمان:

يستشف القارئ لكتابات أبو سليمان الهاجس المعرفي والهم الفكري الذي ظل يؤرق هذا المفكر ويلهمه ويدفعه للحركة ،وهو ما يكاد ينتظم معظم كتاباته وأبحاثه العلمية ، وتمثل قضية (واقع تخلف الأمة وسبل النهوض بها) محور هذا الهم والاهتمام ، "فالباحث في أحوال الأمة الإسلامية -كما يقول- لا يصعب عليه تبين ما هي عليه من تخلف حضاري،وهوان سياسي،ومعاناة إنسانية،رغم ما تتمتع به من إمكانات بشرية ومادية وما تمتلكه من قيم ومبادئ سامية"[1] وكان مدخله للتفاعل مع هذه (الحالة /الهم) في بادئ الأمر هو التركيز على قضية الأزمة الفكرية التي شكلت محوراً في أعماله البحثية كلها ، و لا يصعب على القارئ لكتابات أبو سليمان اكتشاف أن أفكاره في الإصلاح السياسي والإسلامي تتمحور حول هذه الأزمة المركبة التي تحللها عناوين كتاباته الرئيسية "أزمة العقل المسلم"و"أزمة الفكر المسلم" ثم "أزمة الإرادة والوجدان المسلم"و"إشكالية الاستبداد والفساد" .

أبو سليمان ومفكرو إسلامية المعرفة :

إضافة إلى ما سبق عرضه من إنتاج بحثي وفكري. فإن لأبي سليمان اجتهادات مشهودة في التمكين لفكرة إسلامية المعرفة ويعتبره كثير ممن أرخوا للفكرة عرّابها الثاني بعد استشهاد الفاروقي وهنا يقول عن كتابه (أزمة العقل المسلم) والذي سعى فيه إلى تأصيل النظرة الكلية في الفكر المسلم ،ودفع العقل المسلم للنظر الجذري الأصيل في قضايا تخلف الأمة وتدهورها ..لمعرفة السبب ووصف العلاج.[2] يقول "لقد جمعت فيه شتات حصيلة ما كان لي من تأملات ومحاضرات وكتابات عن هذه القضية، ولإعادة تحرير كثير من قضايا كتاب المعهد العالمي للفكر الإسلامي عن "إسلامية المعرفة: الخطة والإنجازات " الذي حرر طبعته الأولى الشهيد الأستاذ الدكتور إسماعيل الفاروقي، وقد سجل فيه منطلقات رسالة المعهد ونتائج المؤتمر الدولي الذي عقده المعهد في" إسلام آباد" عن إسلامية المعرفة، وإسلامية منهج الفكر والبحث العلمي المسلم.

وعلى صعيد علاقته بالإنتاج الفكري لمدرسته امتاز أبوسليمان بانفتاح واضح وتفاعل مباشر مع ذلك الإنتاج ،فأصداء توجهات العلواني المحتفية بقضايا المقاصد والرؤية الكونية تبدو جلية في نتائجه الفكرية ، هذا إضافة إلى مداخلاته مع قضايا المنهجية ، ونظرية القرآن المعرفية ..وغيرها ،حيث امتاز موقفه دائماً بالتناول الإيجابي لذلك الإنتاج . وإذا كان الفاروقي قد تميز بتركيزه على التعليم الجامعي كمجال تطبيقي لمنهجية إسلامية المعرفة ؛ فإن أبوسليمان يركز بشكل أساس على مجال التربية، وهو ما برز في الطبعة الموسعة من "خطة العمل " إلى جانب استدراكات أخرى عديدة ، تبرز الإسهامات الجوهرية

---

* محاضر في مجال علم الاتصال بمعهد إسلام المعرفة , جامعة الجزيرة , السودان.

[1] أنظر :عبد الحميد ابو سليمان ، أزمة العقل المسلم ،الدار العالمية للكتاب الإسلامي و المعهد العالمي للفكر الإسلامي (الرياض 1994م)ص27.

[2] المرجع السابق ص234

لأبي سليمان في أصول فكرة إسلامية المعرفة وهو ما نجده في "الطبعة المعدلة في طبعتها الأولى بالإنجليزية والعربية عام 1986م، وهو العام الذي استشهد فيه الأستاذ الفاروقي وحرمه الدكتورة لمياء الفاروقي يرحمهما الله"

إسلامية المعرفة ورؤية العالم :

يجب أن نؤكد هنا أن الطرح الحالي لفكرة رؤية العالم لم يكن هو أول طرح لها في أروقة مدرسة إسلامية المعرفة، فقد ضمنت منشورات مؤسسات هذه المدرسة إشارات وتحليلات باكرة لهذا المفهوم ؛ ففي عام، 1989م نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي كتاب (الأسس الإسلامية للعلم) والذي حاول محمد معين صديقي من خلاله أن يعقد مقارنة بين رؤية العلم للكون والرؤية الإسلامية للعالم3. ومن جانبه فقد خصص مركز الدراسات المعرفية بالقاهرة عدداً من مجلته (....المعرفة) لموضوع رؤية العالم في المنظور الغربي والإسلامي، أما معهد إسلام المعرفة فقد اشتملت ورقة العمل الأساسية التي قدمها (برنامجاً للبحث العلمي في إسلام العلوم) على إطار كلي نظري للرؤية الكونية القرآنية التي يرجى لها أن تكون أساساً إبيستمولوجياً لبرنامج البحث العلمي4والتي صدرت أعمالها في كتاب تحت عنوان الرؤية الكونية القرآنية كأساس للعلوم الاجتماعية الإسلامية 1994م. ولحق بذلك ظهور محمد أبوالقاسم حاج حمد ضمن مفكري هذه المدرسة ومعلوم أن مفهوم الرؤية الكونية يتخذ موقعاً مركزياً في أفكاره.

إذن فإن فكرة (رؤية العالم) ليست اهتماماً جديداً لباحثي إسلام المعرفة أما الجديد فهو ما يعبر عنه الدكتور فتحي الملكاوي في بحثه (**رؤية العالم والعلوم الاجتماعية**) حيث يقرر أن " حركة الإصلاح الفكري -التي يعمل المعهد العالمي للفكر الإسلامي في إطارها- قد حددت موضوع الرؤية الكونية الإسلامية محوراً مركزياً من محاور نشاطها؛ ذلك أن هذه الرؤية هي التي تحدد طبيعة النظام المعرفي الإسلامي، وملامح المنهجية الإسلامية في التفكير والبحث، وتطبيقاتها في التعامل مع الأصول الإسلامية، والتراث الإسلامي والإنساني، والواقع المعاصر، والمستقبل المنشود للأمة والعالم."

الجديد أن فكرة رؤية العالم تحركت من كونها أداة بحثية أجاد استخدامها عدد من الباحثين في السياق الكلي لفكرة الأسلمة والتأصيل ، إلى هم مركزي من اهتمامات مدرسة إسلامية المعرفة، وهذه في حد ذاتها قضية تستحق النظر والمراجعة والتدقيق.

ويبدو أن هذا ما استشعره أبو سليمان فنجده يفتتح ورقته (الرؤية الكونية الحضارية القرآنية) بتساؤلات عن الأسباب التي دعته إلى الكتابة عن الرؤية الكونية الحضارية القرآنية.في هذا الوقت بالذات .وعن موقع هذا الاهتمام الجديد من كتاباته السابقة ؟5

يسوق أبو سليمان خلاصة تجاربه البحثية لتبرير اللجوء لمفهوم رؤية العالم ، فقد وجد كما يقول أن "أزمة الفكر والمنهج "تدل على الطريق، وتهدي إلى الأسلوب الذي يكون فيه التفكير سليماً، والذي هو وسيلة إدراك التشوهات، ومعرفة كيفية تنقية الثقافة ، وأن "أزمة الإرادة والوجدان المسلم" تدل على إشكالات الأساليب والممارسات التربوية التي تعاني منها الأمة وبنيان أبنائها النفسي والوجداني، والأسلوب المطلوب لوضع حدٍّ للممارسات والأساليب الخاطئة في تربية الإنسان المسلم وتربية وجدانه.

إلا أن مجرد معرفةِ منهجٍ سليمٍ للفكر، وأسلوبٍ سليمٍ في التربية لم يكن كافياً لحل أزمة تخلف الأمة، ولا لإخراجها من دائرة التهميش والسلبية، إلى دائرة الدفع والحراك والفعل والإيجابية، وإلى تحقيق الريادة الإنسانية الحضارية الإصلاحية؛ التي هي رسالتها، والتي هي أهلٌ لها، وتمتلك كل وسائلها ومتطلباتها.

وذلك أنه لا يكفي أن يكون لدى الإنسان الأداة إذا لم يكن له غاية أو هدف من حصوله على الأداة ووجودها بين يديه.

ملامح الفكرة لدى أبي سليمان :

هنا أدركت أن إشكالية الرؤية التي تحدد الغايات وتوفر الدافع هي الأساس الأول والأكبر لكل فعل وحراك إنساني وحضاري، وما لم يكن هناك رؤية كونية حضارية إيجابية توفر الغاية والدافع، فلن تتحرك الأمة، ولن يتحرك الإنسان، ولن تفيد الآلات والأدوات والوسائل والتهديدات والإرشادات والنصائح، مهما كانت وفيرةً، ومهما كانت جيدةً وفعالةً، مثلها في ذلك مثل آلة مفككةٍ إلى قطعٍ، فبالرغم من أن كل جزء منها غالٍ وثمينٌ، وفي حالة جيدة ، نهتم به ونقدره، فإنه لن يؤدي مهمته، ولن يثمر إنتاجاً، إذا لم يوضع في رؤية كيانه الكلي القادر على الإنتاج والحركة.

---

[3] محمد معين صديقي:الأسس الاسلامية للعلم الدار العالمية للكتاب ط2(الرياض1995)

[4] أنظر :مجموعة مؤلفين ،الرؤية الكونية القرآنية كأساس للعلوم الاجتماعية،إصدارت معهدإسلام المعرفة ،ط2 (الخرطوم 2007)

[5] لعل أهمها كتاب "نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة" وكتاب "السياسة البريطانية في عدن والمحميات بين عام 1799 وعام 1961م) (رسالة الماجستير في العلوم السياسية التي لم تنشر) وكتاب "النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية: اتجاهات جديدة للفكر والمنهجية الإسلامية.1986 و"أزمة العقل المسلم" 1986م و"العنف وإدارة الصراع في الفكر الإسلامي" و"الإنسان بين شريعتين" و"ضرب المرأة :وسيلة لحل الخلافات الزوجية!"و"نظام العقوبات الإسلامية: الثابت والمتغير." مقالة مطولة "و"إشكالية الاستبداد والفساد في الفكر والتاريخ الإسلامي "مقالة مطولة".

مهمة رؤية العالم :

يقرر أبو سليمان أنه لابد ان تكون هناك رؤية كونية حضارية:

تمثل الأساس الأول والأكبر لكل فعل وحراك إنساني وحضاري فهي التي تحدد الغايات وتوفر الدافع .

إعطاء الإنسان المسلم معنى حقيقياً إيجابياً للوجود ،وغايةً وهدفاً دافعاً لهذا الوجود .

تكون بمنزلة المحرك والدافع للفعل والعطاء والحركة الإعمارية الإصلاحية.

وعن السبب الذي ساقه لمفهوم رؤية العالم في هذا الوقت بالذات تجنب بذكاء أن تتخذ إجابته منحاً ذاتيا تبريرياً بوصفه لمقالته بكونها تأملية حيث يقرر في عبارة مفعمة بالعاطفة أنه" ومع قرب نهاية مشوار الحياة، والقدرة على العطاء، وعلى النظر والتحليل والتأمل والمحاضرة والكتابة عن" أزمة الفكر المسلم" و"أزمة الإرادة والوجدان المسلم"، وما سبق ذلك وما تلاه من كتابات وتأصيلات، وجدت أن هناك عدداً من الأسئلة، وعدداً من القضايا المحيرة ما زالت عالقة وماثلة أمام ذهني تبحث عن إجابة".

يرى أبوسليمان أن فكرة رؤية العالم قادرة على تقديم الإجابة ثم يبدأ في شرح المبررات التي ساقته لهذه النتيجة.يقول " حين تصديت، مؤهلاً بفهم مسيرة الفكر والوجدان، وأسباب انحرافاتها وتشوهاتها، أمكنني فهم الرؤية الكونية الإسلامية ودلالاتها، وفهم أهميتها، وفهم قضاياها، وفهم تشوُّهاتها، وأسباب هذه التشوُّهات، وكيفية التصدي لها، وكيفية التعامل معها، وهكذا لم يكن بدٌّ لفهم الرؤية الكونية والوعي بها، من فهم إشكالية الفكر والوجدان، كما أن الرؤية كانت ضرورية لفهم إشكالية الفكر والوجدان المسلم".

إذن ومن خلال هذه الفكرة الذاتية يبدو وكان مفكرنا يحاول أن يقول إنني قد وصلت إلى تفاصيل الرؤية الكونية الإسلامية من خلال تجربتي الذاتية ومن خلال تفاعل الذات المفكرة مع قضايا واقعها الإسلامي ،فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه الرؤية إلا من خلال معاناة التجربة البحثية الحريصة عل الالتزام بمقتضياتها ،بكامل أبعادها وكأنه يتمثل قول الشاعر :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

حيث يختتم مداخلته بالتأكيد على هذا البعد فيقول "على أي حال؛ فإنني في نهاية الجهد والمجاهدة مع قضية الرؤية الكونية الحضارية القرآنية سُعِدْتُ أنه أمكنني الإجابة بشكل واع ومقنع عن عدد من القضايا الأساسية الوجودية التي شَغَلَت البال في فهم الذات، ومعنى هذه الذات، وعلاقات هذه الذات بالله، وعلاقاتها بالآخرين، وبالمبادئ والقيم والمفاهيم؛ التي هي أدوات هذه الرؤية وآلياتها؛ لكي تتحقق وتتجسد في واقع الحياة، لإسعاد الإنسان والإنسانية، وتحقيق السعادة والرضا والطمأنينة للإنسان السوي قوله تعالي: **(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً*فَادْخُلِي فِي عِبَادِي*وَادْخُلِي جَنَّتِي)** (الفجر27-30)، فذلك ولا شك عاقبة أصحاب الرؤى العاملة المهتدية في الدارين، بإذن الله.

ختاماً: يمكن القول أن فكرة رؤية العالم اتخذت في المسيرة الفكرية لأبي سليمان ثلاث مراحل. مرحلة بحث واستكشاف المنهج ، ثم مرحلة اختبار المنهج وأخيراً اكتشاف رؤية العالم.

المرحلة الأولى: مرحلة استكشاف المنهج من خلال الاتجاه مباشرة لمعالجة المسائل الجزئية ويمثلها كتاباه "نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة" وكتاب "السياسة البريطانية في عدن والمحميات بين عام 1799 وعام 1961م) .

والمرحلة الثانية: مرحلة اختبار المنهج:وتمثلها جهوده"أزمة العقل المسلم" محاولة للفهم والتحليل،وعمله في إعادة تحرير كتاب "إسلامية المعرفة: الخطة والإنجازات"..

والمرحلة الثالثة: اكتشاف فكرة رؤية العالم :وتبدو على نحو واضح في مقالة (الرؤية الكونية الحضارية القرآنية).